تيمات السرد في سيرة عبد المالك مرتاض

" الحفر في تجاعيد الذاكرة"

د/ الحاج جغدم استاذ محاضر –أ-
جامعة حسيبة بن بوعلي/الشلف

الملخص باللغة الإنجليزية:

Abstract

This sheet of my subject speaks about a theme under the name " the Topics of narration in the biography of ABDELMALEK MORTADH: (drilling in the wrinkles of memory), brings out the Topics of narration which he closes his novel or his subjects are varied and take several colors. Like: plunges into the good time of childhood, pains and rips in the days of residence and travel, the declaration of school days and scientific excellence ... etc.

Keywords : topics ; naration; biographie; drilling; memory

أولا: توطئة

يرى كثير من النقاد، أن السيرة الذاتية جنس أدبي، يختص أساسا باسترجاع ذكريات السارد الماضية، والتي يحكيها عن نفسه ومن مفاهيمها: هي أن يكتب الإنسان بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثها وأخبارها، ويسرد أعماله وأثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث.

ولعل الذي دفعنا للبحث في هذا الموضوع، أن الأستاذ عبد المالك مرتاض –أيام الزمن الجميل- زمن سنوات التدرج بجامعة وهران، كان عزيز الظهور فريد التجلي، الأوحد الذي نشغف -من بين أساتذتنا- الجلوس في حضرته، لأنه يخرج بنا من صرامة الدرس ليسبح بنا في ملكوت رواية الخبر السيري ومغامرات ترحاله بين أماكن متعددة من المعمورة.

من هنا تروم هذه الورقة البحثية الموسومة بـ "تيمات السرد في سيرة عبد المالك مرتاض: الحفر في تجاعيد الذاكرة" إبراز موضوعات السرد التي رصع بها روايته البديعة وهي تسبح بنا في سراديب الحياة، حيث تعددت موضوعاتها وتلونت من مثل: الغوص في زمن الطفولة الجميل والإعتداد به، الأوجاع والتمزق أيام الحل والترحال، البوح بأيام الدراسة والتفوق العلمي....إلخ.

ثانيا: السيرة الذاتية في الأدب الجزائري من الإرهاص إلى التأسيس

مما لا يختلف فيه إثنان، أن بواكير السيرة الذاتية في حقل الأدب الجزائري الحديث قد بدأت مع الكاتب الفذ " رمضان حمود" (*) من خلال عمله الإبداعي الموسوم بـ " الفتى" سنة 1929، حيث تعد هذه الباكورة من الإرهاصات الأولى -ليس

فقط في الجزائر- بل في الوطن العربي، باعتبارها تزامنت مع ميلاد كتاب "الأيام" لطه حسين في السنة نفسها (1929)، وقد قال عنه الشيخ عبد الحميد بن باديس: " كان هذا الشاب الأديب الناهض ركنا ركينا من أركان النهضة الأدبية بالجزائر، ولو أمهلته الأيام لكان نابغتها في الأدب بمعناه الصحيح"[1].

أما المحاولة الثانية التي أرهصت لميلاد هذا الجنس الأدبي في سماء الجزائر فتعود للأديب " عبد المجيد الشافعي" بعنوان "ذكريات من بعيد"، وقد نشرت سنة 1945 بجريدة العبقرية، حيث تطرق فيها الكاتب إلى ذكريات الطفولة، وعن ظروف تمدرسه، معرجا على الحياة الاجتماعية التي عاشها رفقة عائلته[2].

ولا يمكن أن نبرح مرحلة الإرهاص، دون أن نقف عند رجل من رجالات الجزائر الصناديد، وأديبا من أدبائها العظام، ألا وهو الشيخ البشير الإبراهيمي والذي حاول في العديد من إبداعاته أن يكتب عن الذات في بطاقات فنية، ولعل من أبرزها ما هو منشور في مجلة الثقافة وفي العدد السابع والثمانين الذي خصص للشيخ، أو ما هو مدون في كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر.

أجمع الكثير من النقاد، على أن النشأة الجادة لسيرة ذاتية ناضجة ارتبطت بمرحلة التأسيس حيث بزغ عمل المرحوم عمار بلحسن الموسوم " يوميات الوجع"، وفيه سيرة مثقف يئن تحت وطأة المرض الذي ألم به، فلم يجد من أنيس سوى الكتابة ليستأنس بها عن الأوجاع والتمزق.

كما يمكننا في هذا المجال أن ننوه بعديد السير التي زخرفت المكتبات الوطنية، ومنها نذكر: سيرة الكاتبة الجزائرية زهور ونيسي الموسومة "عبر الزهور والأشواك" الصادرة عن دار القصبة سنة 2012، وسيرة الأستاذ "قدور عمار إبراهيم" الموسومة بـ"

بقايا من عهود الزمن وجذور المحن" والتي نشرت بديوان المطبوعات الجامعية سنة 2007.

وعلى حين غفلة من أمر القراء والمثقفين، طلع علينا المبدع والناقد عبد المالك مرتاض بمولود جديد، استجمع فيه حياته في لوحات بديعة، جمعت بين لطافة العبارة وجمالية اللغة، وقد وسمه بـ "الحفر في تجاعيد الذاكرة" سنة 2003 بدار هومة، وأعيد طبعها في الندوة الفكرية الدولية التي نظمها مختبر السرد العربي بجامعة قسنطينة سنة 2014، فيما يعرف بالأعمال السردية الكاملة.

وعن هذه السيرة البديعة يقول الناقد يوسف وغليسي في ديباجته للمجلد الرابع "سيرة ذاتية بديعة، أو رواية الذات الإنسانية المعذبة وهي ترتحل مجاهل الحياة منذ أربعينيات القرن الماضي، طمعا في طلب العلم يوم كان طلبه في البلاد أقسى منه – اليوم- في بلاد الصين وبحثا عما يتاح من لذة المعيشة في زمن قانونه (ولقيت من شظف الأمور شدادها)..."[3].

وأردف قائلا:" ... هو عبد المالك مرتاض وقد أعاد نفسه سيرتها الأولى، وارتد إلى طفولته العصيبة وقد تنازعتها العوالم الجغرافية التي رسمت معالم انطلاقاته الأولى في الأدب والعلم والعمل والحياة، من مسيردة إلى أحفير إلى باريس إلى قسنطينة إلى فاس إلى الرباط" إلى أماكن أخرى كانت جزءا لا يتجزأ من سيرته العسيرة..."[4].

و أخيرا و بعد سنوات طوال من العطاء النقدي و الإبداعي في مجال الأدب الجزائري ، و في مختلف أجناسه الأدبية ، سل الناقد محمد ناصري قلمه و راح ينسج لنا خيوط حياته في لوحات سيرية و قد قسم عمله هذا الموسوم بـ " ذكرياتي و مذكراتي " إلى مراحل أبرزها : مرحلة الطفولة (1938-1954) ، مرحلة الفتوة و الشباب (1954-1962) ، مرحلة الكهولة (1971-1991) ، مرحلة الشيخوخة (2004-2012)

ثالثا : تيمات السرد في سيرة عبد الملك مرتاض : تجاعيد الذاكرة

إن القارئ المتبصر لرواية لوحات من سيرة الذات ، تتجلى أمامه ملامح الذات المرتاضية ، و كأنه يراها رأي العين ، فمجالستك له في حضرة الدرس ، أو استضافتك له في ندوة أو ملتقى ، قرائن توحي بأن إبداعه -المذكور سلفا- حفر في الذاكرة.

و ما يؤكد مذهبنا هذا ، ذكره للمكان الذي نشأ و ترعرع فيه . يقول السارد " وأبت يوما ما من شهر سبتمبر إلى مسيردة فلاحظت أن الأرض قد تبدلت، و أن ما كنت تراه جميلا من قبل أمسى ناشزا في مرآه، و لم يعد فيه ذلك البهاء المعهود، و أن الطريق الذي كنت تعتقد أنه لجب لم يكن في حقيقته إلا مسلكا وعرا ملتويا، و أن ما كنت تراه خصيبا من الأمكنة لم يكن في واقع الأمر إلا جديبا ..."[5].

وفي الضفة الأخرى من هذا الوطن ، يرسم لك المكان الذي حكى عنه ، و نحن في مرحلة الماجستير، حينما حرك شفته متحدثا عن رحلته إلى قسنطينة طالبا للعلم في معهد ابن باديس، وعن ذلك اللقاء الحميمي الذي جمعه بالشهيد أحمد رضا حوحو يقول " وسجلك أحمد رضا حوحو في المعهد رسميا، و سلمك بطاقة الطلب التي لا تبرح متحفظا بها إلى اليوم مكتوبة بخط يده، و أنت طافح بالسعادة، غامر بالخيلاء، سكران بالسرور و كان ذلك اللقاء هو الأول و الأخر مع الأديب الشهيد..." [6] ، و لا نكاد نبرح الشواهد المكانية التي ارتسمت – شفاهة و كتابة – حتى تطلعنا خرجاته في العمل السردي بقرائن جديدة، ويتعلق الأمر بمنجزاته النقدية الأكاديمية المنشورة باسمه، من مثل ما تقدم به الاستاذ " أندري ميكائيل لنيل شهادة الدكتوراه (الدرجة الثالثة) يقول " اعتذر لك الأستاذان الجزائريا الأصل كتابيا عن الإشراف على بحثك و هما غير أبهين ، ووافق المستشرق الفرنسي الأستاذ أندري ميكائيل ، الذي كنت اتصلت به من قبل إلى جامعة وهران ليلقي بها محاضرة بمدرج محمد البشير الإبراهيمي، فوقع التحادث معه حول مسألة الإشراف ، فقبله مشكورا..." [7]

1- زمن الطفولة (زمن السراب) :

ابتدأ عبد الملك مرتاض لوحاته البديعة بمسار" زمن الطفولة " الذي عبر به في مستهل حكايته بـ " زمن السراب " ، وهو اعتراف -منذ البداية- بأنه لم يعد يتذكر الشيء الكثير من أحداثها (مرها و حلوها)، فطفحت الضبابية على سرده، لأن النسيان بلغ منه مبلغا، ما أدى به إلى عدم ذكر دقائقها و جزئياتها .

و عليه ، فإن أولى العتمات التي ترتسم لدى القارئ المتلقي، و هو يتصفح أولى هذه اللوحات حنينه إلى من كان يلاعبها و يداعبها يقول :" ربما أقدم ذكرى لا تبرح تحتفظ بخيوط واهية منها في نفسك هي حين كنت تتعلق في رقبة أمك و هي قاعدة تغزل الصوف و أنت تداعب ضفيرتي شعرها الأسود الطويل..."[8].

يمكننا القول، أن استرجاع شريط الطفولة، شده شدا إلى أعظم مخلوق، إنها الأم التي كانت تكد ليسعد من هم تحت سقف واحد، يقول:" ... كانت مشغولة عن ذلك بما سواه، لم تكن الوالدة تعرف لحظة من الراحة فتتجول أو تتنزه كما كان يجب أن تفعل لو كانت تلفي من يكفيها شؤون البيت، بل كانت تشتغل، ولا تتوقف، بياض نهارها، وطائفة من سواد ليلها، كالنحلة النشيطة... فكيف كان يجوز أن يكون لك معها نصيب من النزهة والعناية..."[9].

وعلى هذا المنوال، راح السارد ينسج خيوط سنوات الطفولة الأولى التي كان عنوانها الأبرز العذاب والشقاء والعناء، والحرمان بأسلوب سردي متميز، استوت فيه حقيقة الحياة التاريخية وأدبية السرد، حتى صار حجاجه مقنعا لسحر البيان وعذوبة البديع، فالسيرة بهذا تنمّ " عن قدرة كاتب مدرب غزير الثقافة على استخدام تقنيات متعددة واسعة الإحالات ومتنوعة الدلالات غنية بالصور والمعاني مفتوحة على التأويل وهي تكشف عن فعالية الإنسان وقدراته..."[10].

يقول:

"وها أنت

ومن أنت؟ وكيف أنت؟ وما أنت، إلا أنت...؟ أم لعلك لست أنت...!

وها أنت...

العُرْيَ ترتدي، والحفاء تمشي.

فِرَاشُكَ العَرَاءُ، غطاؤكَ السّماءُ.

تستحِنُ الشحُوبَ، تقتات الجوعَ، تأكلُ الطَّوَى، تشربُ العطشَ، إذا عزّ الماءُ الشّرُوبُ.

وفوقك عباءة مرقعة بيضاء، وليس عليك سروال ولا أي سترة سفلى، أو كان عليك جلباب صوف بال، لم تعد تذكر في الحقيقة، من لباسك يومئذ شيئا ذا بال، وإن هي إلا ذكريات سحيقة في الزمان، شاحبة في التمثل، واهية الخيوط، أنشبت أظافرها في تجاعيد الزمن الفاني..."[11]

وما زاد من إيلام السارد قساوة الحياة، حيث انعدمت بالمجتمع متطلبات الحياة الكريمة من مثل الحمام الذي لم يكن للإنسان المسيردي الحلم به، إلا ما جادت به الطبيعة على هذه المخلوقات على غرار وادي "يحسوب" فترى أهلها يتسابقون على الغدران متى وجدوها، وهم عرايا وكأنهم يتشبهون بالجاهلية الأولى.

يقول السارد: "وأما الحمام فلم يكن موجودا في مسيردة كلها بأعاليها وأسافلها وبواديها، ومداشرها، فكان الواحد منكم إذا وقع له غدير يعطس فيه، في أي فصل من فصول العام، غطس فيه ولم يبال، فكان ذلك، إن وقع له مرة في الدهر، فإنما يكون

من العناية والتوفيق، فقد كنت تستحم في غدير بوادي يحسوب حين كانت السماء تجود بالغيث المدرار.."[12] .

أدى هذا الوضع الذي باتت قرية المسيردة والدواوير المجاورة لها، تعيش على وقعه وترزخ تحت رحمته، إلى تكالب جيوش القمل التي وجدت رؤوس البشر مرتعا لها، فلا تسمع إلا أزيز الحك يحرث الرؤوس حرثا، "فقد كان القمل يهيج عليكم إذا أرخى الليل سدوله هيجانا شديدا، وكان ليلكم يطول أثناء الشتاء طولا ملحا لإبكارهم إلى النوم، فكنتم تسمعون لتلك الحكات المتتالية المتآنية التي كانت تدمي منها جلودكم: أصواتا منكرات فكان الواحد منكم لا يزال يسمع، أثناء تلك الليالي الطوال أزيز الحك حين كانت الأظافر تنشب جلودكم بإيقاع محموم..."[13]

تجمعت خيوط العيش الضنك، وألمت بسكان القرية، فكان الجوع نتيجة حتمية أفرزتها سياسة التجويع والتجهيل التي انتهجتها فرنسا، فأقدمت على مصادره الأراضي الخصبة، وتوزيعها على المعمرين، لتقطع على الأهالي سبل العيش، بينما يعيش اللقيط حياة الثراء والبذخ، ما أدى بالأهالي إلى البحث عن بديل غذائي يسدون به رمقهم، ولو كان من نبات الأرض، فيتخذونه غسيلا يغسلون به ثيابهم.

يقول السارد: "... وكان عليك أن تتأهب للعري حين تغسله لك أمك أو أخواتك بنبت "تيغيغيت"، وكان هذا النبت الذي يكثر أيام الربيع تقتطعونه ثم تغلونه في القدر بالماء والملح، ثم تتخذونه طعاما تأكلونه هنيئا، وأما في الفصول الباقية فكان الناس في ذلك الوجه من الأرض المنقطعة يحتفرون جذوره ليحلوه محل الصابون الذي كان عليهم غاليا عزيزا..."[14].

أما في القطعة السردية – الآتي ذكرها- لا زال السارد يروي لنا تفاصيل طفولته الأولى –ولو بضمير المخاطب (الأنت)، حيث استعرض لنا شبكة من عناصر

الطبيعة التي شكلها اتحاد الزمان بالمكان، إنه في أحضان هضبة " تا شعبان" التي حققت له ما كان يمني به النفس، إنه صيد وافر، يسد به سؤال العائلة في الأيام العجاف...

يقول: " وإنك لكذلك، وإذا كلبك ينبح ويحاول إدخال رأسه تحت صخرة نابتة في الجهة الشرقية لرأس العبادة، وذهبت ونظرت إلى ما تحت الصخرة فلم تر شيئا، لكن الكلب رفض مغادرة الصخرة وأصر على البقاء بجانب الصخرة، بل ظل هنالك ينبح ويضرب الأرض بقائمتيه الأماميتين، فعدت وتأملت جيدا المكمن الذي كان تحت الصخرة، فإذا أرنب هناك كامن... فلم يكن منك إلا أن مددت ساعدك، ثم أمسكت به..."[15].

2) البوح/ أطوار الدراسة والتفوق العلمي

تبدأ أطوار الدراسة، لتبدأ معها رحلة البحث عن الذات وسط مجاهيل الحياة، إنها حكاية الحفر التي رسمت معالمها نقطة البدء في عوالم الأدب والعلم، من مسيردة إلى أحفير إلى باريس إلى قسنطينة إلى فاس والرباط، إنها محطات من سيرته العسيرة التي حملت معها تحولات عميقة في حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، إنها نقطة المنتهى، التي رسمت له طريق المجد في الجزائر عموما، والوطن العربي خصوصا.

إن رحلة الألف ميل، تبدأ من " الخربيش" بالخماس، بعبارات ذلك المخلوق المتذلل الطائع لمعلمه، المعجب به حد التقديس، وهو يتلقف منه أبجديات الحرف العربي، لكن ما يستوقف القارئ -مع بداية هذه اللوحة-، الرثاء الذي خص به "الخربيش"[(*)] واصفا حاله بالدنيئة. " وتقعد الآن مقعد المتعلم، على الحصير العتيق المنسوج من الحلفاء الخشنة والمفروش على الغبار المتطاير الذي كان يثير على أرضيته

"الخربيش" ما يثير... فقد كتب لك الفقيه العجوز، سي عبد القادر بوطالب الأكبر سطورا ببصره الضعيف الذي لم يكن بقي منه إلا بصيص ضئيل ... وكان ذلك " الخربيش" مسود الجدران، ناتئ الأحجار متطاير التراب، وكان متكاثف الغبار، غير مملط السقف، غير مستوي الأرضية التي كانت تشبه الحقل المخدود..."[16].

وفي ظل تعاظم المصائب وتفاقم الشدائد برحيل فقيه القرية ومعلم الأجيال " سي عبد القادر" إلى جوار ربه، حط الفتى الرحيل بـ "جامع تيزي حماد" ثم منه إلى " جامع القمرة" وكلها تقع بقرية " مجيعة" إحدى قرى بلدة "مسيردة"، "وكان الوالد أوصى صديقه سي الغريب بك خيرا كثيرا، فانتقلت إلى جامع القمرة فكنت نحفظ هناك القرآن تحت رعاية الفقيه الجديد..."[17].

ومن الحكايا الموجعة التي ضمتها لوحات "السيرة" تلك التي رمت بالفتى بمدينة قسنطينة طلبا للعلم، لكن نصيبه ظلت فيه دار لقمان على حالها فمأواه حمام يجمع في جوفه تركيبات عجيبة من البشر، فإذا جن الليل هاجمتك جنود القمل والبق والبعوض. " وهنالك فيها قطنت حماما منتنا مظلما يقع في شارع الشيخ الفقون، مقابل ثانوية البنات وكان ذلك الحمام يجمع تركيبات عجيبة من البشر كلما جنه الليل، ولعله لم يكن يخلو من الحشرات المؤذية مثل القمل والبق والبعوض..."[18].

ما أجمل أن ترمي بك الأقدار من "خربيش" أصبح من الماضي، لكنه النواة التي أرست لك قواعد النجاح، فأسهمت في تكوينك العلمي، وفتحت أمامك الطريق نحو العالمية، عالمية عنوانها الأبرز "جامعة الرباط ثم جامعة السربون". "ويبدو أن تلك الفرحة كانت عارمة بذلك النجاح، لأن ذلك كان سيتيح لك أن تنخرط في المدرسة العليا بالرباط بالإضافة إلى متابعة الدراسة بكيفية منتظمة في كلية الآداب بالجامعة المغربية ..."[19]

3) الأوجاع والتمزق /العمل والكدح

أما الموضوعة الثالثة فقد وسمناها بـ" الأوجاع والتمزق" وهي المرحلة التي لقي فيها الفتى أنواع العذابات، وعاش أنواع الأوجاع فصار ممزق الأوصال، وهو مصير أبناء الفقراء والمعوزين الذين يكدون لمشاركة أبائهم تسيير شؤون العائلة، وشعورهم بالمسؤولية يدفعهم إلى العمل في سن مبكرة وبمهن مختلفة من مثل: التقاط الحلزون، فتل الضفيرة، احتطاب الحطب، الشوالة.

يقول:"...ولكن الأهم من كل ذلك أنكم كنتم تتنافسون، فتيانا وفتيات، في التقاط الحلزون وجمعه – في أواخر الربيع وأوائل الصيف- وتعبئته في أكياس لتبيعوه في مدينة أحفير المغربية في سوق الاثنين بفرنكات زهيدة كنتم تشترون بها بعض ما يؤكل، أو بعض ما يلبس ..."[20]

ويقول أيضا :"...وكان احتطاب الحطب من المهمات الموكلة إلى الأطفال: بنين وبنات، فكنتم تتخذون ترشاء، ثم تقصدون أكثر العابات مظنونية بوفرة الحطب، فكنتم لا تزالون تلتقطون الحطبة تلو الحطبة، والعود بعد العود، إلى أن تكتمل لكم حزمة من الأعواد اليابسة القابلة للاتقاد السريع فتحزموها بترشائكم وأنتم فرحون ..."[21]

وعلى هذا الأساس، انخرط الفتى في كدح من نوع آخر، حيث ارتقت به الحاجة إلى تضحية أخراه."فقد بلغ عبد الملك مرتاض من الرشد ما أهله للتفكير في مستوى آخر من الكدح وهو إدراكه لقيمة العلم. فبدأ يفكر في تضحية من نوع آخر، وهي التعلق بأسباب النجاح العلمي الذي ارتبط بالمال. ومع عوز العائلة وفاقتها، فكر في تكوين نفسه المادي حتى يستطيع مزاولة الدراسة ..."[22]

قائمة المصادر

*ولد سنة 1906 وتوفي 1929، وهو لا يتجاوز سن الثالثة والعشرين من عمره، ترك ما يقرب من ثلاثين قصيدة، وسلسلة مقالات عن "حقيقة الشعر وفوائده والترجمة وأثرها في الدب" ثم نشر كتابه " بذور الحياة" عام 1928، وقصة "الفتى" سنة 1929، وقدمها في المرحلة الولى، ولم يمهله القدر بالجزء الثاني.

1 محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، دار بهاء، قسنطينة، 2007، ط2، ص 281.

2 ينظر: عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص98.

3 عبد المالك مرتاض، الأعمال السردية الكاملة، مج4، منشورات مختبر السرد، جامعة منتوري، قسنطينة، 2012، ص 05.

4 م، س، ص 05.

[5] م ، س ، ص 87

[6] م ، س ، ص 89.

[7] م ، س ، ص 111 ..

[8] م ، س ، ص 09.

[9] م ، س ، ص 10.

[10] سمر إبراهيم، سحر السرد، الهيئة العامة للكاتب، القاهرة، ط1، 2016، ص 277.

[11] عبد المالك مرتاض، الأعمال السردية الكاملة، ص10.

[12] م، س، ص 12.

[13] م، س، ص 13.

[14] م، س، ص11.

[15] م، س، ص 50.

*يطلق الخربيش لدى حفاظ القرآن، في الجزائر، على الغرفة التي يحشر فيها جمع من الصبيان للحفظ.

[16] م، س، ص 54.

[17] م ، س ، ص 79.

[18] م، س، ص 79.

[19] - م.س،ص108.

[20] -م.س، ص119.

[21] -م.س، ص 126.

[22] عيسى بخيتي، عبد المالك مرتاض رائد السيرة الذاتية، مجلة اللغة والاتصال، ع 16، 2014، ص 162.